

٢

سوريا

ما بين اسيا الصغرى للشمال ، والفرات والبادية للشرق ، وقسم من بلاد العرب للجنوب ، وبحر الروم للغرب تمتد سوريا بسلسلة جبالها متدرجةً من الغرب حتى تنتهي على بحر الروم ، وممتدةً من الشرق حتى تلامس نهر الفرات عند شماله ورمال صحراء الشام عند جنوبه . وهذه السلسلة التي تمتد بطولها من اسيا الصغرى حتى بلاد العرب ، من طورس الفاصل حتى الصحراء الجافة ، تظهر للناظر باغرب حركات الطبيعة واجمل انتساقها ، فهي تحاذي خليج اسكندرونة حتى انطاكية ، ثم تتجه نحو الجنوب الشرقي حتى بعلبك ، ومن هناك تتقطع بتلال متتابعة وتمتد ذراعها لتصافح بحر الروم بجبلي لبنان والاني لبنان ومن قرب الشاطي تمتد جناحاً كبيراً ينتهي بالكرمل الواقف عمودياً على صفحة الماء ، ثم ترتفع على مشهدٍ منه قمة الطور لتسود التلال العديدة الواقفة بعلوٍ متدرج حتى تصل نقطة اختفائها على الارض القاحلة ، على الرمال المحرقة ، على الصحراء

تلك هي سوريا وفيها حلب ودمشق وبيروت واورشليم : المدائن الاربع التي تقف كالمواصم لما حولها ، وعليها مدار النظر في مستقبل سوريا وحياتها . وهذه البلاد العزيزة التي رأينا فيها نور الحياة وشاهدنا على قمها

نور الدستور لهي اكثر بلاد الدولة استعداداً للمستقبل المجيد ، اذا كان
اهلها كارضها وقلوبهم كأنهارها

هذه البلاد التي تخط بجلبها الكبيرين اثلام الاودية العميقة وتطوق
السهول لترسل اليها ماء الحياة ، هذه البلاد تجمع بوحدتها من انواع
الاراضي ما لا تملكه البلدان العديدة بتفرقتها على كل الاقاليم

... هنالك سهول الحر وهنا جبال القر ، هنالك السفوح المعتدلة
وهنا القمم الناطحة اطراف الفيوم . فارضنا منبت كل ما يجتمع من الطبيعة
في مملكة النبات ، وكل ما تطلب الالفه الكاملة من انواع العقول واستعداد
الاجسام . فاذا اوجدت لنا السهول رجال القناعة والعمل ، دفعت لنا
الجبال بسيل عريم من اهل الفكر والاطماع ، وقدمت لنا الاوساط
جيشاً من بني القناعة وصفاء الذهن . لنا السنديان والكرم والازهار . لنا
القوة والفائدة والجمال

... هذه سوريا التي نراها مملوءة من عناية الله لا نكاد نقب
صفحة من تاريخها ما لم نجد عليها لطفة سوداء نفضها الانسان من مظالمه
ومن اطماعه . هذه للبلاد الجميلة كانت منذ البدء ارض الميعاد لكل شعب ،
وكل شعب فيها يئن مظلوماً كأنه منفي غريب في وادي الدموع . كل
عنصر كان يظهر على الارض لم يتوار من صفحة الوجود ، قبل مروره
بسوريا ، وابقائه فيها اثراً شقياً

كل قافلة من رجل الانسانية تركت على ارض سوريا تائهاً ، وكل
معسكر غاز ترك بقية متمردة ، وكل حاكم فيها ابقى عليها سلالة تطمح الى

الحكم ، وهكذا لا تمرُّ ابصارنا هنيئةً على ارضها ما لم نجد في اصفر اقسامها خليطَ اليهود والمعجم واليونان والروم والافرنج والعرب . وفيهم الظالم والمظلوم ، المستبدُّ والمتجني ، العناصر الباكية والعناصر الضاحكة ، والاقوام التي تتعصب وتضرب والاقوام التي تتعصب وتحمل الويل . فيهم التركي والعربي البدوي ، النصراني والدرزي ، السني والمتوالي ، السامري والكابي واليزيدي وكلُّ هذه العناصر تظهر للمفكر كمزيج هائل من الخير والشر ، من التسامح والجور ، من الاخلاص والكذب ، من الشهامة والدناءة . من الايمان بالله والكفر به

... . كيفما قلبت النظر في هذه البلاد العزيزة ، تجد آثارَ الجور وبقايا الحروب القومية الدينية ، سرح ابصارك على شاطيء بحر الروم من صيدا الى يافا الى اورشليم ، وقف قليلاً على اطلال اليهودية القديمة ، واتبع حدود البلاد حتى بلاد العرب وآسيا الصغرى حتى برية الشام وارض حلب ، فلا تتجاوز ابصارك هذه الاماكن قبل ان تمتلئ من مشاهد الخرائب والاطلال في كل مكان دلالةً على الجهل وترفع الانسان عن ان يكون اخا الانسان : لقد شاهدت « صور » اول بحارة تجارية وفتحت موانئها يد الاجتهاد فهدمتها ايدي المظالم . وبني اليونان مرافئ لوقاية المراكب فآلتها الحكومة البائدة في اللجج . وكانت بادية الشام جنات البلاد وذخر الخلفاء فاصبحت ارجاء ياوي اليها المتشردون منذ القرن السادس عشر حتى اليوم . صور وصيدا تلك الاماكن التي انبثقت منها تجارة العالم لم يبق من اهلها غير ذكر مظلم يكاد يكون الحلقة

المفقودة لتمدن الانسانية . انطاكية وحمص والرملة وكل هذه المدن القديمة
قد اصبحت ظللاً يبني فوقه المظلومون اكوأخهم ويتوه على رماده بنو
الفقر والشقاء

... من جعل هذه الارحاء المملوءة بمباديء الامجاد عفرأ تترفع عنه
الارجل ومتهدمات ينق فيها اليوم ؟ من هوى بذلك المجد غير الحروب تلك
الآفة الهائلة التي تتولد من الاطماع والتعصب والجهل ، ولا تموت الا على
اطلال القصور أو فوق قبر ظالم او عند الرماد الذي يغطي الشعوب المنقرضة
واي زمان خلت فيه سوريا من طامع يستثمرها او سفاح يقود
ابناءها بالسياط وبالسيوف ؟ من تحت حكم الجمهوريات الرومانية الى حكم
قناصلها الى جور الاسكندر واحكام بومباي ، ومن تسلط السلجوقيين الى
عصا امبراطرة الغرب الحديدية ، ومن العرب الى يد الافرنج دُفعت شعوب
سوريا كالبيد وسيقت كالنعاج ، وهذه الارض المزهرة المثمرة استثمرها
اليونان وهدمها العرب واستعبدها الافرنج . انها لبلاد تضم كل قوى الحياة
هذه البلاد الناعسة التي ساطتها كل العصور وداست على قلبها كل الشعوب
ولم تزل تتنفس وفي عروقها دم وفي صدرها حياة

لا يكاد يوجد مكان كسوريا تتجلى فيه عظمة الخالق في بدائع خلقه
وضلال الانسان في آثار تعصبه وقساوته وضلاله . لا توجد بلاد حملت
كسوريا استبداد الملوك العديدين وبربرية الجنود وعواصف الحروب .
لقد تغير وجه سوريا مئة مرة منذ اثنتي عشر قرناً وتتابعت الحكومات
العديدة على هذه البلاد ، وكل واحدة منها تدفع اقوامها شوطاً بعيداً عن

تقدمها في سبيل المظالم والاستبداد

وقد كانت بلادنا محطاً لأعصار الشعوب من كل جهة ، من الشمال
ومن الجنوب ، من قفر الرمال ومن قفر الثلوج ، من الحجاز ومن بلاد التتر
وكل هولاء الاقوام لم يجتازوا سوريا الا وابقوا عليها أثر العنف ودلائل
الدمار . . .

(وبعد ان أتى الكاتب على ذكر الغزاة الفاتحين الذين اجتاحوا في سوريا قال) :
وفي العاشر من تموز سنة ١٣٢٤ جاءنا فاتح جديد بلا حملة ولا سيف .
جاءتنا فتاة تركية يجناحها الذهبي وابتسامتها الخلابه لتجفف الدموع التي
اسالها ابوها القاسي . ظهرت ابنة الترك لتضمده جراح سوريا وقد سبرت
الاجيال قروحها الى افصاها . او بالحري جاءتنا فتاة الحرية وهي ابنة
العالم كله لا تنتسب لامةٍ ولا لشعب دون اخيه
جاءت محررة الانسانية من قيودها ومطلقة العناصر من اوهاها
والاديان من تعصباتها

ملاكٌ في شماله غصنُ السلام ، في يمينه قبسُ النور نشاهد على
شعاعه ما اخفته عنا ظلمات القرون ، فلننظر الى مجاهل امراضنا نظرة
الشجاع الى جراحه ، فان الحرية لا تشفي ولكنها تعطي العليل حرية
الشفاء
فليكس فارس

